الموانع من التوبة

- الاستهانة بالذنوب .
- طول الأمل .
- الاتكال على أماني العفو الإلهي .
- استحكام الذنوب واليأس من المغفرة .
- الجهل بحقيقة المعصية .
- الاحتجاج بالقدر .

الموانع من التوبة

التوبة فريضة على جميع المؤمنين ، كما جاء فى القرآن ، وحاجة كل إنسان إليها حاجة أساسية لا يستغنى عنها ، كما لا يستغنى عن الطعام والشراب ، والإعراض عن التوبة خطر على الإنسان ، قد يودى به ، ويوقعه فى مهاوى الردى ، فهو خطر على قلبه ، على إيمانه ، على حسن صلته بربه ،على حياته الروحية كلها .

ولكن ما الذى يمنع الإنسان من التوبة ، ويؤخره عنها ، وفيها نجاته وسعادته ؟

لا يخفى أن هناك عقبات وموانع تحول بين الإنسان وبين توبته إلى الله تعالى ، ينبغى أن نسلط عليها بعض الأشعة الكاشفة، حتى نحاول التغلب عليها ، فليس هناك شىء مستحيل، وخصوصا مع المحاولة وبذل الجهد وصدق العزم وصحة التوجه .

وجل هذه الموانع - إن لم يكن كلها - موانع نفسية ، تنبع من داخل الإنسان ، وتؤثر فى توجهه وسلوكه .

١ - الاستهانة بالذنوب :

من أوائل هذه الموانع : الاستهانة بالذنوب ، واعتبارها أمرًا هينا ، لا يزعج ولا يقلق ولا يخيف . وهذا ولا شك من أثر الجهل بمقام الله جل جلاله ، خالق الخلق ، ومالك الملك،ذى الجلال والإكرام ، الذى خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، وكرمه أفضل تكريم ،وسخر له ما فى السموات ، وما فى الأرض ، جميعا معه ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة،الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، والذى يفعل فى ملكه ما يشاء ، العزيز الجبار ، الواحد القهار .

هذا الإله العظيم لا يجوز أن يستهان بمعصيته ، حتى يقول : ليت كل ذنب فعلته مثل هذا ! بل ينبغى أن يستعظم كل ما يصدر عنه من معصية فى حق الله عز وجل .

وفى الحديث الذى رواه البخارى عن ابن مسعود : « المؤمن يرى ذنبه كالجبل يخاف أن يقع عليه ، والمنافق يرى ذنبه كذباب وقع على أنفه فقال به هكذا وهكذا » .

ومرض بعض الصالحين من السلف ، فعاده بعض أصحابه فوجدوه يبكي بمرارة وحرقة ، فعجبوا لذلك ، وسألوه : ما هذا البكاء ، ولم نرك فى حياتك قد اقترفت كبيرة ، أو قصرت فى فريضة ، أو ضيعت حقا ؟ فكان جوابه : والله ما أبكى على فريضة تركتها ، ولا حرمة انتهكتها ، ولا حق ضيعته ، ولكن أبكى ، لأنى أخشى أن أكون قد أتيت ذنبا أحسبه هينًا وهو عند الله عظيم ! .

وهو يشير إلى ما ذكره القرآن فى قصة أم المؤمنين عائشة ، وكيف لاكت بعض ألسنة المسلمين حديث الإفك عنها ، الذى أشاعه المنافقون ، فتلقفوه بسذاجة وغباء ، ونقله بعضهم عن بعض باستهتار ، وبلا تهيب فجاء القرآن يعقب ويقول : ﴿ وَلَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ (٢) .

وقد ذكرت عائشة مرة إحدى ضرائرها ، فأشارت إلى أنها قصيرة القامة ! فقال رسول الله ﷺ : «يا عائشة،لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته » (٣) .

ولقد حذرنا رسول الله ﷺ من (محقرات الذنوب) فقال : « إياكم ومحقَّرات الذنوب ، فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا واد ، فجاء ذا بعود ، وجاء ذا بعود ، حتى حملوا ما أنضجوا به خبزهم ، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه » (٤) .

---

(١) النور : ١٦ . (٢) النور : ١٥ .

(٣) رواه أبو داود والترمذى عن عائشة . صحيح الجامع الصغير (٥١٤٠)

(٤) قال الهيثمى فى (مجمع الزوائد) : رواه أحمد عن سهل بن سعد ورجاله رجال الصحيح ، ورواه الطبرانى فى الثلاثة من طريقين ، ورجال أحدهما رجال الصحيح ، غير عبد الوهاب بن الحكم وهو ثقة (١٠ : ١٩٠) .

٢ - طول الأمل :

ومن موانع التوبة ومؤخراتها : طول الأمل فى الحياة ، بمعنى أن يعتبر الإنسان أن الحياة معه لا تزال ممتدة ، وأن الموت لا يزال بعيدا ، وأن فى العمر متسعا لمزيد من اللهو والغفلة ،واتباع الهوى ، والسير فى ركاب الشيطان .

إن آفة الإنسان : أنه لا يزال يمنى نفسه بطول العيش ، ويزيح شبح الموت كلما تراءى أمام عينيه ، فابن العشرين يقول : أتوب فى الأربعين ، وابن الأربعين يقول : أتوب فى الستين ، وابن الستين ، يقول : أتوب فى السبعين ، أو هكذا يظل الإنسان يستبعد الموت وهو أقرب ما يكون إليه ، ويسوف التوبة ، وهو أحوج ما يكون إليها .

المشكلة أن الموت لا يستأذن قبل مجيئه ، ويأتى بغتة ، وكثيرًا ما يأتى غير متوقع ، فيختطف الصغير قبل الكبير ، والشاب قبل الشيخ ، والابن قبل أبيه ، والبنت قبل أمها .

وأخطر ألوان الموت هو موت الفجأة ، الذى يهجم على المرء دون أن يستعد له ، أو يهيىء الزاد لسفره ، ولهذا استعاذ النبى ﷺ من شره .

وهذا ما خَوَّفَ منه الصالحون من قديم ، وقال قائلهم:

تزود للذى لا بـــد منـه فإن الموت ميقـات العباد !

أترضى أن تكون رفيق قوم لهم زاد وأنت بغـير زاد ؟

وفى عصرنا كثرت أسباب الموت المفاجىء ، مما لم يكن مثله فى العصور الماضية ، رغم تقدم الطب والتفوق فى العلاج .

فطالما سمعت الناس يموتون فجأة : بالسكتة القلبية ، أو الذبحة الصدرية ، أو الجلطة المخية ، أو غير ذلك مما نعرفه وما لا نعرفه .

كما أن الموت فى الحوادث أصبح كثيرا جداً ، فهذا يموت فى حادث سيارة ، وآخر فى باخرة ، وثالث فى قطار ، ورابع فى طائرة ، وهذا ثمن الحضارة .

لا معنى إذن لأن يستبعد الإنسان الموت ، وهو يرى صرعاه فى كل حين ، ولو

نظر فيما حوله ومن حوله ، وفكر وتأمل : كم شيع من قريب ، وكم ودَّع من حبيب ، وكم دفن من رفيق ، وكم عزى فى صديق ، لو تذكر قائمة الأسماء التى واراها التراب ممن يعرفهم ويتصل بهم لهاله طول القائمة واتساعها .

ومن هنا علمنا رسولنا الكريم أن نعيش فى الدنيا بروح الغرباء ، فنحن فى هذه الدار ضيوف راحلون حتما ، غدا أو بعد غد ، فهى دار ممر لا دار مقر ، يقول عليه الصلاة والسلام : « كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ، وعد نفسك من أهل القبور » وكان ابن عمر يقول : « إذا أصبحت فلا تنتظر المساء وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وخذ من صحتك لسقمك ، ومن حياتك لموتك » [1] .

ومن رجزهم الذى كانوا يتناشدونه فى عهد الصحابة :

كل امرىء مصبح فى أهله والموت أدنى من شراك نعله !

ومن أشعار من بعدهم من الصالحين :

تزود مـــن التقـــوى فإنك لا تدرى إذا جن ليل : هل تعيش إلى الفجر ؟

فكم من سليـــم مات من غير علة وكم من سقيـم عاش حينا من الدهر !

وكم من فتى يمســـى ويصبح لاهيا وقد نسجـــت أكفانه ، وهولا يدرى !

٣ - الاتكال على أمانى العفو الإلهى :

ومن الموانع التى تؤخر التوبة : الاتكال على عفو الله تعالى وسعة رحمته كما حكى الله تعالى عن اليهود ، أنهم ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ [2] .

وهذا لا شك من الغرور القاتل ، فمن أين يضمن أن الله تعالى سيغفر له ؟ وهل أخذ موثقا أو صكًّا من الله تعالى بذلك ؟ وهو سبحانه يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، ولا معقب لحكمه .

إن فرق ما بين المؤمن والمنافق : أن المؤمن يعمل الصالحات ، ويقول : أخشى ألا تقبل منى ! والمنافق يقترف السيئات ، ويقول : أطمع أن تغفر لى .

(١) رواة البخارى . (٢) الأعراف : ١٦٩ .

صحيح أن رحمة الله تعالى وسعت كل شيء ، كما أن علمه وسع كل شيء ، وهو ما قاله الملائكة فى دعائهم : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً ﴾ (١) وقال تعالى فى خطابه لكليمه موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ عَذَابِى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (٢) .

فجعل العذاب خاصا ، والرحمة عامة ، ولكنه تعالى عقب على ذلك فقال عن هذه الرحمة : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ . . . ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ المحْسِنِينَ ﴾ (٤) .

إن الرجاء فى رحمة الله يتطلب عملا يقرب المرء من هذه الرحمة ، مثل الإيمان والهجرة والجهاد ، كما قرأنا ذلك فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٥) فلم يقرر لهم الرجاء إلا بعد اجتياز هذه المراحل الصعبة .

وفرق بين الرجاء والأمنية : الرجاء ما قارنه عمل وسعى ، وإلا فهو أمنية فارغة ، كما قال على - كرم الله وجهه - فى وصيته لابنه : وإياك والاتكال على المنى ، فإنها بضائع النوكى : أى الحمقى . ويقول الشاعر :

ولا تكن عبد المنى ، فالمنى رؤوس أموال المفاليس !

وقال آخر :

اعلل بالمنى قلبى ، لعلّى أروّح بالأمانى الهم عنى !

واعلم أن وصلك لا يرجى ولكن لا أقل من التمنى !

ولقد حكى الله لنا هذا اللون من الأمانى عن اليهود والنصارى حيث قال : ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ، تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ، قُلْ

(١) غافر : ٧ . (٢) الأعراف : ١٥٦ . (٣) الأعراف : ١٥٦ ، ١٥٧ .
(٤) الأعراف : ٥٦ . (٥) البقرة : ٢١٨ .

هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[1] هذا ما قرره القرآن عن هؤلاء : تلك أمانيهم ، تَمَنٍّ للجنة بلا عمل ، وإنما ينال الجنة من جمع وصفين أساسيين : إسلام الوجه لله والإحسان .

وفى سورة أخرى يقول تعالى حكما عدلا بين أهل الكتاب والمسلمين : ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِّى أَهْلِ الْكِتَابِ ، مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا * وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾[2] .

لا تنس يا أخى المسلم أن الله تعالى لم يسامح نبيه آدم فى لقمة أكلها من الشجرة بعد أن نهاه عنها ، وهو الذى خلقه بيديه ، ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته ! ولا تنسى أنه جل جلاله لم يسامح نوحا عليه السلام فى كلمة قالها يشفع بها لابنه الكافر : ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنِّى أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾[3] فانظر إلى هذا الرد الشديد على شيخ المرسلين » حتى لا تطمع فى غير مطمع ، وتأمل قول الشاعر :

يا ناظـــرا يـــرنو بعَيْنَىْ راقـد ... ومشاهدا للأمر غيـــر مشاهد !

تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجى ... نيل الجنان ، ودرك فـوز العابـد

أنسيـــت أن الله أخـــرج آدما ... منها إلى الدنيا بذنـب واحـد ؟!

فلا مجال - إذن - لأولئك المسرفين على أنفسهم ، المفرطين فى جنب ربهم وبارئهم ، المقصرين فى حقوق غيرهم ، أن يؤجلوا التوبة قائلين : إن الله غفور رحيم ، فإن هذا جهل بمقام الله تعالى ، ونظرة إلى جانب من كمالاته عز وجل ،

---

(١) البقرة : ١١١ ، ١١٢ . (٢) النساء : ١٢٣ ، ١٢٤ . (٣) هود : ٤٥ ، ٤٦ .

دون استيعاب الجوانب الأخرى ، فقد قال تبارك وتعالى : ﴿ نَبِىءْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ ﴾[1] .

وقال سبحانه : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [2] .

وهذا يعتبر من العجز والحماقة ، وليس من الفطنة والكياسة كما فى الحديث النبوى الذى رواه الترمذى : « الكيس : من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز : من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأمانى » [3] .

وقد أنكر صالحو الأمة على من فرط فى حق ربه ، ثم اتكل على عفوه ومغفرته ، وقال شاعرهم فى ذلك :

ما بال قلبك ترض أن تدنسه ... وثوبك - الدهرَ - مغسول من الدنس ؟

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجرى على اليبس !

إن الرجاء فى عفو الله ومغفرته سبحانه مطلوب من كل مسلم ، وإن كثرت معاصيه وعظمت خطاياه ، فهو من ضرورات السير إلى الله تعالى ، ولكن لا ينبغى أن يرجو الإنسان ثمرة ، دون أن يبذر بندرة ، أو يغرس شجرة ، ويتولى سقايتها ورعايتها .. فإن المبالغة فى الرجاء بغير عمل يقدم ، أو جهد يبذل ، يجعله نوعا من الأمن من مكر الله تعالى ، وهو باب الخسران ، يقول عز وجل : ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ ، فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الخَاسِرُونَ ﴾ [4] .

---

(١) الحجر : ٤٩ ، ٥٠ . (٢) الرعد : ٦ .

(٣) رواه ابن ماجه عن شداد بن أوس وفى إسناده بقية بن الوليد ، وهو مدلس وقد صرح بالتحديث (٤٢٦٠) والحاكم وصححه ووافقه الذهبى (٤ / ٢٥١) كما رواه الترمذى بسند آخر وحسنه ، وفى سنده أبو بكر بن أبى مريم ، وكان قد اختلط بعد أن سرق بيته .

(٤) الأعراف : ٩٩ .

٤ - استحكام الذنوب واليأس من المغفرة :

ومن موانع التوبة لدى بعض الناس : أن يعيش بعيداً عن ساحة الله ، وأن يغوص فى أوحال الذنوب صغائرها وكبائرها ، مرتكبا للمحظورات ، تاركا للمأمورات ، مضيعا للحقوق ، ما كان فيها من حقوق الله ، وما كان منها من حقوق العباد ، لقد كان من الذين أضاعوا الصلوات ، واتبعوا الشهوات ، لم تعرف عينه الدموع ، ولا قلبه الخشوع ، ولا ظهره الركوع ، ولا جبهته السجود ، لم يكن المسجد له دارا ،ولا المصحف له أنيسا ، ولا النبى له أسوة ، ولا الصحابة له قدوة .

وفجأة صحا من سكرته ، وتنبه من غفوته ، فوجد البون بينه وبين أهل الخير والصلاح شاسعاً ، وأين الثرى من الثريا ، إن ذنوبه - وما أكثرها - تثقل ظهره ، وتغل قدمه ، فلا يستطيع أن يتحرك إلى الإمام ، وهل يقبله الله بعد هذه الحياة المظلمة بالمعاصى ، التى لم يكن يرى فيها شعاعا من نور ، وهل يفتح له الباب بعد طول الشرود إلى أبواب أخر غير باب الله ؟

إنه هالك لا محالة ، قد كتبت عليه الشقوة والضياع ، فلا أمل فى عودته ، ولا رجاء فى قبوله ، ولا طمع فى العفو عنه ، فليستمر فى غلوائه ، وليمض فى طريقة الأعوج ، طريق الشيطان ، طريق النهار الأسود والليل الأحمر .

هكذا يفكر بعض العصاة ، يستعظمون ذنوبهم ويقنطون من غفرانها ، ويغلقون الأبواب أمام أنفسهم ، ناسين أن مغفرة الله تعالى أوسع من ذنوبهم وإن كثرت ، وأن رحمته لا تضيق يوما بخطاياهم ، وإن تفاقمت ، فقد قال تعالى لرسوله : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (١).

وانظر إلى هذه الإضافة العذبة الرقيقة ما ألطفها وما أنداها « يا عبادى» فرغم عصيانهم له تعالى وإسرافهم على أنفسهم ، لم يحرمهم شرف الانتساب إليه ،

(١) الزمر : ٥٣ .

والعبودية له جل شأنه ، وهو ينهى هؤلاء المسرفين عن القنوط من رحمة الله ، مؤكدا أنه جل ثناؤه يغفر الذنوب جميعا بهذا الإطلاق ، وهذا التعميم ، حتى الشرك ، لأن المقصود أنه يغفرها بالتوبة ، وفرق بين هذه الآية والآية الأخرى فى سورة النساء : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ويَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ (١) : فهذه فى غير التائبين ، فكل ذنب قابل للغفران ولو بغير التوبة ، ما عدا الشرك .

إن الخوف من الله تعالى مطلوب ، وهو - مثل الرجاء - زاد ضرورى فى السفر إلى الله ، والوصول إلى رضوانه ، ولكن المبالغة فى الخوف قد تنتهى بالإنسان إلى اليأس من روح الله ، والقنوط من رحمة الله ، فقد قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ القَوْمُ الكَافِرُونَ ﴾ (٢) ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ ﴾ (٣) .

ولذا قال على ﷺ : ألا أنبئكم بالفقيه ؟ كل الفقيه ؟ من لم يوئس عباد الله من روح الله ، ولم يؤمنهم من مكره .

وهذا هو التوازن المنشود : أن يرجو المسلم ربه رجاء لا ينتهى به إلى الأمن من مكر الله ، وأن يخافه خوفا لا ينتهى به إلى اليأس من روح الله تعالى .

وقد وصف الله بعض عباده بأنهم: ﴿ يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ (٤) ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ (٥) .

فلا ينبغى للمذنب أن يقنط من رحمة ربه وإن كثرت ذنوبه وعظمت .

وفى الحديث القدسى : « يا ابن آدم : إنك ما دعوتنى ورجوتنى ، غفرتُ لك على ما كان منك ولا أُبالى » (٦) يعنى : على كثرة ذنوبك وخطاياك ، ولا

---

(١) النساء : ٤٨ . (٢) يوسف : ٨٧ . (٣) الحجر : ٥٦ .
(٤) الإسراء : ٥٧ . (٥) الزمر : ٩ .
(٦) رواه الترمذى (٣٥٤٠) عن أنس وقال : حديث حسن غريب .

يتعاظمنى ذلك ، ولا أستكثره . وفى « الصحيح » عن النبىِّ ﷺ ، قال : « إذا دعا أحدُكم فليُعظِم الرَّغبَةَ ، فإنَّ الله لا يتعاظمه شىء » [1] .

فذنوب العباد وإن عظمت ، فإنَّ عفو الله ومغفرته أعظم منها وأعظم ، فهى صغيرة فى جنب عفو الله ومغفرته .

وفى « مستدرك الحاكم » [2] عن جابر أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ يقول : واذنوباه ! واذنوباه ! مرتين أو ثلاثاً ، فقال له النبى ﷺ : « قل : اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبى ، رحمتك أرجى عندى من عملى » ، فقالها ، ثم قال له : « عُد » ، فعاد ، ثم قال له : « عد » ، فعاد ، فقال له : « قم ، فقد غفر الله لك » ، وفى هذا يقول بعضهم :

يا كَبير الذَّنب عفوٌ الـ ... ـله مِن ذنبك أكبرُ
أعظَمُ الأشياء فى جـ ... ـنب عفوِ الله يَصغُرُ

وقال [3] :

يا ربِّ إن عَظُمَت ذُنوبى كَثرةً ... فلقَد علمتُ بأنَّ عَفوكَ أعظَمُ !
إن كان لا يرجوك إلا مُحسنٌ ... فمَن الذى يَرجو ويدعُو المُجرِمُ ؟
مالى إليك وسيلةٌ إلاَّ الرجا ... وجَميلُ عفوك ثم أنِّى مُسلِمُ !

قال الفضيل بن عياض رحمه الله : ما من ليلة اختلط ظلامها ، وأرخى الليل سربال سترها ، إلا نادى الجليل جل جلاله : من أعظم منى جوداً ؟ والخلائق لى عاصون ، وأنا لهم مراقب ، أكلؤهم فى مضاجعهم ، كأنهم لم يعصونى ، وأتولى

---

(١) رواه من حديث أبى هريرة أحمد ٢ / ٤٥٧ ، والبخارى فى « الأدب المفرد » (٦٠٧) ، ومسلم (٢٦٧٩) ، ابن حبان (٨٩٦) .

(٢) ١ / ٥٤٣ - ٥٤٤ ، وقال الحاكم : حديث رواته عن آخرهم مدنيون ممن لا يعرف واحد منهم بجرح ، ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى .

(٣) هذه الأبيات وما قبلها لأبى نواس ، وهى فى « ديوانه » ص ٦١٨ ، ٦٢٠ .

حفظهم ، كأنهم لم يذنبوا فيما بيني وبينهم ، أجود بالفضل على العاصى ، وأتفضل على المسىء ، من ذا الذى دعانى فلم ألبّه ؟ ، أم من ذا الذى سألنى فلم أعطه ؟ أم من الذى أناخ ببابى فنحّيته ؟ أنا الفضل ، ومنى الفضل ، أنا الجواد ، ومنى الجود ، أنا الكريمُ ، ومنى الكرمُ ، ومن كرمى أن أغفر للعاصين بعد المعاصى ، ومن كرمى أن أعطى العبد ما سألنى ، وأعطيه ما لم يسألنى ، ومن كرمى أن أُعطى التائب كأنه لم يعصنى ، فأين عنى يهرب الخلائق ؟ وأين عن بابى يتنحى العاصون ؟ خرجه أبو نعيم [1] .

ولبعضهم فى المعنى :

أسأتُ ولم أُحْسِنْ وجئتُكَ تائباً ... وأنَّى لعَبْدٍ عن مواليه مَهْرَبُ ؟
يُؤَمِّلُ غُفْرَاناً فإنْ خَابَ ظَنُّه ... فما أحَدٌ منه على الأرض أخيبُ !

٥ - الجهل بحقيقة المعصية :

ومن موانع التوبة : أن يكون المكلف على معصية من معاصى الله ، وهو لا يشعر بها ، ولا يعلم أنه على معصية ، لعلها من أعظم المعاصى ضررًا ، وأشدها خطرا . ولهذا صورًا أذكر اثنتين منها :

الأولى : أن يكون المرء معجبا ببعض الطاعات الظاهرة التى يؤديها ببدنه ، من صلاة وصيام ، وذكر وتسبيح وتلاوة ، وصدقة وتعليم ، فتعظم رؤيته لها ، والتفاته إليها ، وإعجابه بها ، برغم ما قد يشوبها من آفات خفية فهذا (العُجب) من المهلكات التي تحجب السالك إلى الله عن معرفة عيوب نفسه ، وتعمى عين قلبه عن رؤية حقيقة أعماله ، وخفايا سيئاته وخطاياه .

فربما كان غارقا أوغريقا فى معاصٍ هى أشد خطرا من الزنى وشرب الخمر ، وهو لا يدرى : معاصى القلوب التى تردى الكثيرين فى مهاوى الردى وهم لا يشعرون ، فربما كان هذا المرء حسودا أو حقودا أو مستكبراً أو مغرورا ، أو شحيحًا أو مرائيا ، أو محبا للدنيا ، أو للمال والجاه ، أو غير ذلك من الذنوب الهائلة التى

---

(١) فى « الحلية » ٨ / ٩٢ - ٩٣ .

تأكل الحسنات ، وتلتهم الطاعات كما تلتهم النار الحطب ، والتى تحول بين صاحبها والجنة ، كما فى الحديث الصحيح : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر » [1] « إياكم والشح ، فإنه أهلك من كان قبلكم » [2] ، « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع وإعجاب المرء برأيه » [3] ، « دب إليكم داء الأمم من قبلكم : الحسد والبغضاء ، والبغضاء هى الحالقة ، لا أقول : تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين » [4] .

والثانية : أن يقيم على بدعة من البدع المضلة التى أبطلها الله ورسوله ، وهو يحسب - كسائر المبتدعين - أنه يتقرب بها إلى الله تعالى ، سواء كانت بدعة عملية كالبدع فى العبادات ، شأن الذين يشرعون فى الدين ما لم يأذن به الله ، ويتقربون إلى الله تعالى بما لم يشرعه لعباده ، جاهلين ، أو متجاهلين : الأصلين الكبيرين :

الأول : ألا يعبد إلا الله تبارك وتعالى .

والثانى : ألا يعبد إلا بما شرع لا بالأهواء والبدع ،وفى الحديث المتفق عليه : « من أحدث فى أمرنا ما ليس منه فهو رد » .

أم كانت بدعة قولية ، من بدع الأفكار والآراء التى أحدثتها فرق شتى ، لم تجعل الكتاب والسنة أصلها الذى تستند إليه ، ومصدرها الذى تعول عليه ، لتحاكم آراءها وأقوالها وأقوال شيوخها ومعظميها إليهما كما قال تعالى : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [5] ، بل جعلت آراءها وآراء من تعظمهم - وربما كانوا من خارج الإسلام - هى الأصل والمرجع والمعتمد ، فما وافقها فهو مقبول ، وما عارضها فهو مرفوض .

هذا الصنف من الناس محجوب عن رؤية بدعته ومخالفتها لأمر ربه ،

---

(١) رواه مسلم عن ابن مسعود : صحيح الجامع الصغير (٧٦٧٤) .

(٢) رواه مسلم عن جابر : المصدر السابق (١٠٢) .

(٣) رواه الطبرانى فى الأوسط عن ابن عمر ، وحسنه فى صحيح الجامع الصغير (٣٠٤٥) .

(٤) رواه أحمد والترمذى عن الزبير : المصدر السابق (٣٣٦١) .

(٥) النساء : ٥٩ .

وحقيقة دينه ، فهو ممـــن قال الله تـــعالى فيهم : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ (١) ، وقال : ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ (٢) .

وهكذا كان الخوارج قديما ، يستحلون دماء المسلمين خارج فرقتهم ، ويستبيحون أموالهم ، ويعدّون ذلك قربة إلى الله تعالى : وقد صح الحديث فيهم : « يحقر أحدكم صلاته إلى صلاتهم ، وصيامه إلى صيامهم ، وقراءته إلى قراءتهم » ومع هذا وصفهم بأنهم « يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة » فآفتهم أنهم لم يتعمقوا فى فقه القرآن ومقاصده ، وأنهم فهموه فهما سطحيا ، وقرؤوه دون أن يتعمقوا فيه ، فسقطوا فى هذه الكبائر الموبقات وهؤلاء لهم خلف فى عصرنا يتعبدون بقتل المسلمين الابرياء ، من المدنيين العزل ، حتى النساء والأطفال والشيوخ بأبشع وسائل القتل والذبح، ويباهون بذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وهذا الخطر مما نبه عليه سلف الأمة : أن صاحب البدعة لا يتوب منها ، إذ كيف يتوب من أمر يعتقده قربة وطاعة ؟ .

٦ - الاحتجاج بالقدر :

ومن موانع التوبة : الاحتجاج الجاهل بالقدر ، فمن الذين سقطوا فى شرك المعاصى ، وغرتهم الأمانى وغرهم بالله الغرور ، من إذا دعوته إلى التحرر من أغلال المعصية ، والبراء من أهلها ، والدخول فى عالم الطاعة والمطيعين لله ، يقول لك : هذا قدرى ، كتبه الله على وقدره فى الأزل ، والمكتوب لا مهرب منه ، وعلى الإنسان أن يرضى بقدره ويستسلم لقضائه ، فالقدر لا شك أقوى منا ، ونحن أضعف من أن نقاومه .

وهذا كلام مدخول ، خال من الفقه بدين الله ، والفقه بسنن الله ، وهو يدور فى فلك الفكرة التى قالهـــا المشركون قـديما محتجين على شركهم وتحريمهم ما أحل

---

(١) فاطر : ٨ (٢) الكهف : ١٠٤ .

الله : ﴿ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ [1] فهم يدعون أن شركهم وتحريمهم واقع بمشيئة الله تعالى .

ورد عليهم القرآن بقوله : ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا ، قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ ﴾ [2] .

قد يقبل الاحتجاج بالقدر فيما مضى من العمل ، وإن كان الواجب ألا يفعل ذلك ، أعنى : ألا يقول : قضى الله على أن أعصيه - بل يقول ما قاله أبواه ، آدم وحواء : « ربنا ظلمنا أنفسنا » . . . وما قاله كليم الله موسى : « رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لي » وما قال ذو النون فى بطن الحوت : ﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [3] .

وفيما ترويه كتب الرقائق : أن رجلا وقع فى معصية ، فقام يناجى ربه قائلا : إلهى ، أنت قضيت ، أنت قدرت ، أنت حكمت ، فسمع صوتا يقول له : هذا حق الربوبية ، فأين أدب العبودية ؟ فقال : إلهى ، أنا عصيت ، أنا أسرفت ، أنا ظلمت . . فسمع كأن الله يقول له : وأنا غفرت ، وأنا عفوت ، وأنا رحمت .

أقول : لو جاز قبول الاحتجاج بالقدر على سوء العمل ، لكان ذلك بالنسبة للماضى ، أما بالنسبة للمستقبل ، فلا يقبل بحال ، لأن المكلف لا يعرف ماذا قدر له فيه ، ويجب عليه أن يدفع القدر بالقدر ، يدفع قدر الذنوب بقدر التوبة والاستغفار ، كما هو شأن المؤمن القوى ،والمؤمن الصادق البصير بدينه يعلم أن وظيفته ، كما قال الإمام ابن القيم : مصادمة أمواج القدر ، ومعارضتها بعضها ببعض ، وإلا هلك ، فيرد القدر بالقدر ، وهذا سير أرباب العزائم من العارفين ، وهو معنى قول الشيخ العارف القدوة عبد القادر الكيلانى « الناس إذا وصلوا إلى

---

(١) الأنعام : ١٤٨ . (٢) الأنعام : ١٤٨ . (٣) الأنبياء : ٨٧ .

القضاء والقدر أمسكوا ،إلا أنا ، فانفتحت لى فيه رَوْزَنة ، فنازعت أقدار الحق بالحق للحق ، والرجل من يكون منازعاً للقدر ، لا من يكون مستلماً مع القدر » !! ولا تتم مصالح العباد فى معاشـــهم إلا بدفع الأقدار بعضها ببعض فكيف فى معادهم ؟ .

والله تعالى أمر أن تُدفع السيئة ، وهى من قدره ، بالحسنة ، وهى من قدره ، وكذلك الجوع من قدره ، وأمر بدفعه بالأكل الذى هو من قدره ، ولو استسلم العبد لقدر الجوع ، مع قدرته على دفعه بقدر الأكل ، حتى مات : مات عاصياً ، وكذلك البرد والحر والعطش ، كلها من أقداره ، وأمر بدفعها بأقدار تضادها ، والدافع والمدفوع والدفع من قدره .

وقد أفصح النبى ﷺ عن هذا المعنى كل الإفصاح ، إذا قالوا : « يا رسول الله ، أرأيت أدوية نتداوى بها ، ورقى نسترقى بها ، وتُقًى نتقى بها ، هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ قال : هى من قدر الله »[1] .

وفى الحديث الآخر « إن الدعاء والبلاء ليعتلجان بين السماء والأرض » .

وإذا طرق العدُّو من الكفار بلد الإسلام طرقوه بقدر الله ، أفيحل للمسلمين الاستسلام للقدر ، وترك دفعه بقدر مثله ، وهو الجهاد الذى يدفعون به قدر الله بقدره ؟ .

وكذلك المعصية إذا قُدِّرت عليك ، وفعلتها بالقدر ، فادفع موجبها بالتوبة النصوح ، وهى من القدر[2] .

* * *

(١) رواه الترمذى فى الطب (٢٠٦٦) عن أبى خزامة - أو ابن أبى خزامة عن أبيه ، وقال : هذا حديث حسن . وفى بعض النسخ : حسن صحيح .

(٢) مدارج السالكين (١ / ١٩٩ - ٢٠٠) .